

السعادة الحقيقية عند ابن حزم الظاهري

د. سعد عبد السلام*

الملخص باللغة العربية:

احتل السؤال عن كيفية بلوغ الإنسان السعادة، حيزاً لا يحصر من كتابات القدامى والمعاصرين، سيان كانوا فلاسفة أو علماء أو باحثين في السلوك الإنساني، ولا مندوحة من القول بأن كل الديانات والفلسفات؛ بل وسائر المعارف والعلوم قدمت تشخيصاً لعلّة تعاسة الإنسان، كما قدّمت حلولاً لإخراجه منها، إلى ما يحقق له السعادة والرضا. لذلك يتمنى جميع الناس الحياة السعيدة ويبحثون عن ما يجلب لهم السعادة، إلا أنهم يختلفون في تصورهم لطبيعة هذه السعادة، ولا يتفقون في تحديدهم للوسائل الموصلة إليها، فقد يكون موضوع سعادة أحدهم تعاسةً للآخر، ووسيلة تحصيلها عند هذا، مذمومة عند ذاك وهكذا دواليك... فلا غرو أن يتمحور بحثنا حول هذه المسألة النفسية الأخلاقية في آن واحد، حيث أجمع كل من كتب في النفس والأخلاق، أن الغاية التي يرنو كل إنسان لتحقيقها، هي أن يكون سعيداً، والرغبة في إزالة نقيضها وهي التعاسة الناشئة عن الهمّ، هذا الهم الذي يتوجّب طرده وإبعاده، لتصفو نفسه من أكدارها وأقذارها وأوضارها. وقد برز الفيلسوف والعالم الموسوعيّ الجيهنزي ابن حزم الظاهري الأندلسي (384هـ-456هـ/994م-1064م) العالم بفنون الشريعة والفلسفة وعلم النفس والأخلاق وغيرها، وبكتبه الماتعة الباسقة وآرائه السامقة، المبثوثة في سائر مؤلفاته، وبخاصة رسالته: "مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق" حيث حدد فيها سبل وطرق طرد الهم لبلوغ السعادة. فما حقيقة نظرية طرد الهم عند ابن حزم؟ وما علاقتها بالدين والأخلاق وبالنفس؟

- **الكلمات المفتاحية:** الأخلاق، الفضائل، السعادة، طرد الهم، مداواة النفوس.

* - أستاذ معاصر "أ"، قسم: الفلسفة، جامعة: زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، البريد الإلكتروني

[saadibnhazm@gmail.com]

ملخص باللغة الإنجليزية:

Abstract: Theory Context and research of Ibn Hazm

The question about the moral behavior has been always the interest of great number of Muslims scientist the same as philosophers and moral scientist writers about morals agreed that what comes from man (good actions) called virtues and the opposites call vices. And Ibn Hazm research about morals was about moral question. All moral writers agreed that it is a purpose every person is riming out. Ibn Hazm was seen as a philosophical personality in his book "Morals and biographies" the first reference to his theory about morals.

He précised the meanings of goodness and evil. And talked about the virtues and vices. So how much the theory of Real ? And what is its relationship with morals and self ? And what is the scientific and philosophical value ?

Keywords: the moral ; the virtues ; theory of Real ; call vices ; called virtues.

تمهيد:

السعادة هي مطمح الانسان وغايته، ينشدها ويجد في طلبها، ويتطلع الى بلوغها، والكل يتصور السعادة في تحقيق أمر ما، فالبعض في الجاه والسمعة وخلود الذكر، وآخرون في المال الوفير وبسطة العيش، وقد تتراءى لآخرين في التأمل النظري والسمو بالنفس إلى مرتبة الكمال العقلي. واختلاف الناس في معاني السعادة راجع إلى ما يخص كل واحد منهم، فالفقير يرى سعادته في الثروة، والمريض في الصحة، والذليل يراها في الجاه والسلطة... وهكذا دواليك؛ فالسعادة مطلوبة لغيرها لا لذاتها، وهي مرتبطة بوعي الناس للواقع الذي يعيشون فيه، وبه يتحدد تمثّلهم لها. وقد أجمع المؤلّفون في الأخلاق على أن كل ما يصدر عن الإنسان من أفعال حسنة هي الفضائل، وأن نقيضها هو الرذائل؛ ونظرا للارتباط الوثيق العميق الدقيق بين السعادة والأخلاق، تمحور البحث في الأخلاق عند ابن حزم الظاهري، حول مسألة أخلاقية أجمع كل من كتب في الأخلاق، أنها الغاية التي يسعى كل إنسان إلى تحقيقها، والرغبة في إزالة ضدها، إنها السعادة ونقيضها هو الهم، الذي يتوجب طرده وإبعاده. وقد برز ابن حزم

كشخصية فلسفية، إذ يعتبر كتابه الموسوم: "الأخلاق والسير" المصدر الرئيس لنظريته في الأخلاق، حيث حدد فيه معاني الخير والشر، وتكلم عن أنواع الفضائل والردائل، مؤكداً على أن ثمرة الفلسفة هي إصلاح النفس، وذلك بأن تستعمل في دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها في المعاد، ونادى بضرورة البعد عن المعاصي والردائل، لأن الشريعة أو النبوة والفلسفة ما جاءت إلا لهذا الغرض وحده.⁽¹⁾ ومما لا شك فيه أن القضايا الأخلاقية التي عالجها، كتب فيها مفكرو وفلاسفة الأخلاق في الإسلام، قبل ابن حزم وبعده؛ غير أن معظم الذين سبقوه إلى الكتابة في الأخلاق، تأثروا بنظريات أفلاطون وأرسطو في مختلف المسائل الأخلاقية التي تناولوها، كالسعادة والفضائل والردائل... محاولين أسلمتها لتتماشى مع شريعة الإسلام، وهذا ما يتجلى مثلاً عند الكندي (ت. 256هـ) ومسكويه (ت. 421هـ) وغيرهما.⁽²⁾ ولعلنا لا نبالغ إن نحن قارنا بين ما كتبه ابن حزم في الأخلاق وبين من ألف فيها ممن أشرنا إليهم، حيث نجد أن جميعهم قد مزج الآراء الفلسفية بالدينية مع سيطرة غالبية للآراء الفلسفية، لكونهم كانوا تحت تأثير الفلسفة اليونانية، لذا غلب عليهم الطابع الفلسفي في الأخلاق؛ بخلاف ابن حزم الذي تميز عنهم بكونه مزج الآراء الدينية الإسلامية بالفلسفة اليونانية وغيرها، مع سيطرة الروح الدينية عليه.⁽³⁾ والمتأمل في آراء أبي محمد الأخلاقية، وبخاصة رسالته الشهيرة: "مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل"⁽⁴⁾ يخيّل إليه أن صاحبها كتبها في آخر حياته، لأنها على ما يبدو ثمرة يانعة إقتطفها من سَيِّ نضجه وزبدة تجاربه، حيث سطرها بأسلوب هادئ عميق، ممزوج بالمواعظ والحكم، بعيداً عما هو مألوف عنه في كتبه الأخرى المشحونة بالحدة والعنف حيناً، وباللهجة الساخرة

¹ - ابن حزم: "الفصل في الملل والأهواء والنحل" تحقيق: يوسف البقاعي، دار إحياء التراث، بيروت، ط. 2002م (99-98/1) و"الرسائل" لابن حزم، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ط. 1987م (134/3). من الغريب العجيب أن نجد ابن حزم العالم الظاهري يدافع عن الفلسفة والمنطق والعقل. معالم التفكير الفلسفي عند ابن حزم الظاهري" سعد عبد السلام.

² - محمد يوسف موسى: "الفلسفة الأخلاقية في الإسلام وصلها بالفلسفة اليونانية" مؤسسة الخانجي، القاهرة، ط. 1963م (ص. 126).

³ - ناجي التكريتي: "الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام" دار الأندلس، بيروت، ط. 1982م (ص. 401-402).

⁴ - حَقِّقت هذه الرسالة تحت مسميات مختلفة، ومن أبرزها وابدعها، تحقيق: إحسان عباس، ضمن: "رسائل ابن حزم" (1/333).

الممزوجة بالتهكم من الخصوم حيناً آخر؛ فالناظر لما سجله أبو محمد وسطّره، يرى خلاصة دراساته الدينية والفلسفية العميقة، وملاحظاته العقلية الدقيقة، واستقراءاته لشؤون الناس وأفعالهم الخلقية، مع نُتف من تجاربه الشخصية، لأجل غاية تربوية تعليمية مقصودة.⁽¹⁾ يقول أبو محمد: «فإني قد جمعت في كتابي هذا معاني كثيرة أفادتها واهبُ التمييز تعالى... حتى أنفقت في ذلك أكثر عمري، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة، ورقمت ما سبرت من ذلك بهذا الكتاب، لينفع الله تعالى به من شاء من عباده... وإصلاح ما فسد من أخلاقهم...»⁽²⁾

أولاً: السعادة وعلاقتها بمسألة طرد الهم

لا ريب أن مبتغى كل فرد تحت أديم السماء، بل وغاية كل إنسان هي تحقيق السعادة؛ أي أن يكون سعيداً، ولأجل ذلك يسعى كل امرئ جاهداً إلى تحقيقها، فري الهدف الأسنى في الوجود كله ولا شيء سواها. وهو ما توصل إليه أبو محمد من خلال دراساته واستقراءاته لتاريخ البشرية كله. «تطلّبت غرضاً يستوي الناس كلهم في استحسانه وفي طلبه، فلم أجده إلا واحداً، وهو طَرْدُ الهم... الناس كلهم لا يتحركون حركة أصلاً إلا فيما يرجون به طرد الهم... فطرد الهم مذهب قد اتفقت الأمم كلها مذ خلق الله تعالى العالم إلى أن يتناهى... على ألا يعتمدوا بسعيهم شيئاً سواه.»⁽³⁾ فالسعادة هي الخير الأعلى والأسنى، الذي يسعى ويأمل كل بشري إلى تحقيقه، من خلال العمل الدؤوب والمتواصل لأجل بلوغ الكمال فيه، حيث يتشوق الناس بطبعهم إليه، ويكاد أكثرهم يجمع عليه بالإسم، وهو ما يسمونه السعادة، ويرون أنّ أحسن عيش وأهنأه لا يتم إلا في كنف السعادة.⁽⁴⁾ ولذا فإن طرد الهموم والغموم والأحزان التي تكدر على الإنسان صَفْوَ حياته وهُدوء باله، هي أبلغ وأقصى ما يطمح إليه المرء ويتمناه، لهذا يزداد سعي البشر، وتتفاوت هِمَمُهُم في طرح الهموم وإزالتها، بل وفي إزاحتها عن أنفسهم. «وهذا الذي يسمّيه ابن حزم طرد الهم، هو الذي أسميناه بالسعادة، لأن السعادة لا تتحقق إلا بطرد الهموم التي تلم بالنفس؛ ومع أن الناس

¹ - عبد الكريم خليفة: "ابن حزم الأندلسي، حياته وأدبه" دار العربية للنشر، بيروت، د.ت.ط، (ص.180).

² - ابن حزم: "رسالة في مداواة النفوس..." ضمن "الرسائل" (333/1-334).

³ - نفسه. (336/1).

⁴ - أرسطو: "الأخلاق" ترجمة: إسحاق بن حنين، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1979م (ص.57).

اتفقوا على هذا المذهب إلا أنهم اختلفوا اختلافا كبيرا في تحقيق السعادة التي ينبغي أن يقصدها الإنسان ويسعى في تحقيقها في واقع الحياة.⁽¹⁾ فما عبّر عنه أبو محمد بطرد الهم، اتفقت سائر الأمم على اختلاف دياناتهم وتباين أفكارهم على طلبه، لأنهم مشتركون في ذات الغرض ومتساوون في نفس الهدف، وهو إبعاد كل هم عن أنفسهم، أي همّ كان، ماديا أو معنويا. وهو ذاته ما قصد إليه أرسطو، وذهب إليه ابن المقفع في قوله: «غايات الناس صلاح المعاش والمعاد... وعلى العاقل أن يعلم أن الناس مشتركون متساوون في الحب لما يوافق، والبغض لما يؤذي، وأن هذه منزلة إتفق عليها الحمقى والأكياس...»⁽²⁾.

لذا لا يختلف اثنان، على أنّ جميع الناس ينطلقون في مساعيهم وأعمالهم لأجل مطلوب واحد لا غير، وهو كيف يمكنهم أن يحققوا أمانهم ويجلبوا السعادة لذواتهم، ويوفّروا الراحة المادية والمعنوية لأنفسهم، وإن كان جميع الناس يعتبرون السعادة هي الخير الأسمى، فإن أن هناك اختلافا بيننا بينهم في تحديد طبيعة السعادة وأصلها، فمنهم من يحصرها في لذة المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمركب (وهي اللذة البدنية)، ومنهم من يربطها بالثروة والتشريفات والجاه والمجد والحسب (وهي اللذة السياسية)، وصنف ثالث يرى سعادته في الحياة التأملية العقلية (وهي اللذة العقلية)، وهو الصنف الذي تمثّله قلة من الناس ارتفعت عن مطالب الجسد وأغراض السلطة، قصدت السعادة العميقة، سعادة العقل والروح، والتي هي سعادة في ذاتها وكل ما عداها مجرد وسيلة لتحقيقها. وهناك أصناف لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. فالسعادة الحقيقية إذن ممنوع إدراكها إلا على الكَمَل من الناس، وهي "شيء ثابت غير زائل ولا متغير، بل هي أشرف الأمور وأكرمها وأرفعها، ومحلها النفس وحدها دون البدن، ومن ظفرها لن يضره إن تعطلت بعض وظائف جسده أو صار سقيما أو معدّما ذميما.

وللفلاسفة في حقيقة السعادة آراء متباينة، فمنهم من يرى أن السعادة هي الاستمتاع بالأهواء (السفسطائيون) ومنهم من يقول بأنها تتجلى في اتباع الفضيلة (أفلاطون)، ومنهم من يقول: إنها في الاستمتاع بالذات الحسية (أبيقور وأتباعه)، أما أرسطو فإنه يوحّد بين الخير الأعلى والسعادة، ويجعل اللذة شرطا ضروريا لبلوغ السعادة لا شرطا كافيا... " فالسعادة ضد الشقاوة، وهي الرضا التام بما تناله النفس

¹ - عمر سليمان الأشقر: "الإخلاص" دار النفائس، عمان، ط. 2006م، (ص.9).

2. ابن المقفع: "الأدب الصغير" تحقيق: أحمد زكي باشا، جمعية العروة الوثقى، الإسكندرية، مصر، ط. 1911م (ص.5-12)

من الخير، والفرق بين السعادة واللذة، أن السعادة حالة خاصة بالإنسان ورضا النفس بها تام، على حين أن اللذة حالة مشتركة بين الإنسان والحيوان، ورضا النفس بها مؤقت، ومن شرط السعادة أن تكون ميول النفس كلها راضية مرضية، وأن يكون رضاها بما حصلت عليه من الخير تاماً ودائماً، ومتى سمت السعادة إلى مستوى الرضا الروحي ونعيم التأمل والنظر أصبحت مغتبطة، وكانت أسى وأدوم...⁽¹⁾ لذلك رسمت الأديان والفلسفات وكثير من النظريات طرقاً شتى لبلوغ السعادة، فهي في الدين الإسلامي مثلاً تحضّل بالتقوى والعمل الصالح، وبالتقرب من الله بعمل الطاعات واجتناب المحرمات... وقريب من ذلك ما ذهب إليه بعض الفلاسفة وعلماء النفس والأخلاق، فالسعيد هو الفاضل أخلاقياً، أي ذاك الذي يعرف الفضيلة نظرياً، ويأتمنها في سلوكه عملياً، وهؤلاء جميعاً جعلوها غاية للأخلاق، وقمة للفضائل والسلوك الخَيْر السامي. يقول ابن حزم: "فرضٌ على الناس تعلّم الخير والعمل به، فمن جمَعَ الأمرين جميعاً، فقد استوفى الفضيلتين معاً..."⁽²⁾

وإذن فقد تناول أبو محمد الغاية من الحياة كلها، وهي: "طرد الهم"، وهي من أهم المسائل التي أولاهها عناية بالغة، بل وأعطاهها الأولوية على غيرها، إذ افتتح بها كتابه الأخلاقي: "مداواة النفوس" وتمحورت كل آرائه الخلقية حولها، وتحدث عنها بشكل مستفيض؛ لأنها جوهر وماهية الإنسان دينياً ونفسياً وأخلاقياً، إنها أسى خير يتطلع الإنسان إلى تحقيقه، وفي ذات الوقت يكون الهم أعظم شئ يسعى المرء للتخلص والإنفكاك من ريقته، بل والإنسلاخ منه بشئ الوسائل والسبل.⁽³⁾ ذلك أن الهم مصدر الآلام والغموم، ومبعث الهموم والأحزان التي تذيب الإنسان كمدا. يقول ابن حزم عن الآلام وأصنافها: «أشد الأشياء على الناس: الخوف والهم والمرض والفقر، وأشدّها كلها إيلاماً للنفس، الهمّ لفقْد المحبوب وتوقّع المكروه، ثم المرض... وأشدّ الأمراض كلها ألماً، وجعٌ ملازم في عضو ما بعينه، وأما النفوس الكريمة فالذلّ عندها أشد من كل ما ذكرنا...»⁽⁴⁾

1. جميل صليبا: "المعجم الفلسفي" دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982 (1/656-657).

2. ابن حزم: "الرسائل" (1/413).

3. ابن حزم: "رسالة في مداواة النفوس..." ضمن "الرسائل" (1/337).

4. نفسه (1/404).

وسبب نشوء الهم وعلة حدوثه في نظره هو الطمع، حيث أن شرهة الإنسان وطمعه في تحقيق ما يقدر وما لا يقدر عليه، تجلب له المتاعب والهموم، ومن ثمة يعمل جاهدا لأجل التخلص منها. «الطمع سبب إلى كل هم... وأصل كل هم، وهو خلق سوء ذميم وضده نزاهة النفس... والطمع مركب من أربع صفات وهي: الجبن والشح والجور والجهل، ولولا الطمع ما ذلَّ أحد لأحد»⁽¹⁾ ويلزم عن ذلك ضرورة، أن الهم شرّ ويتوجب طرده، بخلاف جلب الرضا الذي ينتهي بالإنسان حتما إلى الخير، ومن ثمة إلى السعادة. فطرد الهم هو الطبيعة السلبية للسعادة، والناس جميعا على اختلاف اعتقاداتهم وأجناسهم وأعصارهم وأمصارهم يسعون إليها، هذه السعادة التي تُتصَف بأن قيمتها كامنة فيها.⁽²⁾ لكن على أي شيء سيحصل الإنسان إن تمَّ طرد الهم عنه؟.

إنَّ ما يمكن استنباطه من كلام أبي محمد، أنَّ المراد بطرد الهم هو دفع الآلام النفسية والجسمية عن المرء، لأجل تحقيق اللذة بنوعها المعنوية والمادية، فكل إنسان مجبول على حب التلذذ بالأشياء، لشعوره وإحساسه بحلاوتها، بل وإدراكه لكونها ملائمة له، ونفوره من الألم لكونه مؤلما ومؤذيا له. فنحن جميعا نتلذذ بطرد الهم لأجل تحقيق الحياة السعيدة؛ وتبعاً لذلك نحب الحياة من أجل تحقيق اللذة الخالية من كل هم أو غم؛ لكن ما علاقة اللذة بالسعادة؟ وهل يبلغ الناس حقا هذه السعادة التي ينشدونها؟.

إن اللذة حالة وجدانية نفسية، ترتبط بالقوى الكامنة في الإنسان أو ما يصطلح عليه: الطبع، وهي شعور خفي يختلج في النفس فيدفع المرء إلى العمل لأجل بلوغ مراده، سيان كان دينيا أو دنيويا، ماديا أو معنويا، وهكذا تتجدد نوازع ورغبات الإنسان للبحث عن مختلف اللذات لأجل بلوغ السعادة، والوصول تبعاً لذلك إلى ما يقابله عكسياً أي زوال الهم وطرده، فتكون اللذات المعنوية والمادية قد جُلبت وحلَّت بالتالي محلَّ الآلام، وحينذاك يكون الهم قد زال. وهو ما أشار إليه أبو محمد من أنَّ اللذات والآلام نوعان: معنوية ومادية. «لذة العاقل بتمييزه ولذة العالم بعلمه ولذة الحكيم بحكمته... أعظم من لذة الأكل بأكله والشارب بشربه والواطي بوطئه... وبرهان ذلك أنَّ الحكيم والعالم والعاقل ومن ذكرنا، واجدون سائر اللذات التي سمَّينا، كما

¹ ابن حزم: "الرسائل" (1/371-372).

² حامد أحمد الدباس: "فلسفة الحب والأخلاق عند ابن حزم" دار الإبداع، عمان، ط1، 1993، ص126.

يجدها المنهمك فيها، ويحسّونها كما يحسها المقبل عليها...⁽¹⁾ لكن أبا محمد يفضل اللذات المعنوية النفسية على الجسمية المادية، لأنها أكمل وأطول مدة، وأشد أثراً من اللذات المادية الزائلة بزوال ما يلتذ به، بل هي خير وأبقى؛ معتمداً على مقياس واقعي تجريبي، وهو أن الذين لجأوا إلى اللذات الروحية فضّلوها وأنخوا ببابها رحالهم، لاسيما وأنهم قد ذاقوا من قبل اللذات المادية وعرفوها، وسبروا أغوارها فأدركوا كنهها وماهيتها، وقارنوا بينهما فوصلوا إلى حقيقة باسقة مفادها: تفضيل اللذات الروحية على المادية، وبالمقابل لم يجرب أصحاب اللذات المادية أي لذات روحية، ولم يعلموا عنها شيئاً، وليس من رأى كمن سمعاً، وليس الخُبْرُ كالخَبَرِ، وإلا فأين الثرى من الثريا، لهذا كان الأولون أصدق حكماً وأشدّ وطناً وأقوم قبلاً. «... وإنما يحكم في الشئيين من عرفهما لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر...»⁽²⁾ أي أن من ذاق حلاوة وحُسنا ما، استشعر لذة روحية لا يمكنه أن يعدلها بما يقابلها من لذائذ مادية مهما بلغ شأوها وشأنها. لكن هل يعني قوله باللذة متابعة المدرسة النفعية اللذية وتأثره بأفكارها؟

لاشك أن دفع الهم له صلة وثيقة بمذهب المنفعة⁽³⁾ الذي قرّره أبيقور (ت. 270 ق.م) حيث يرى أن المعيار الذي يجب أن تقاس به الأفعال الخيرة هو ما تجلبه من منفعة، أو ما يعود على المرء من لذات مع إبعاد الآلام عنه، فالفعل الجالب للمنفعة يُعتبر خيراً وحسناً، وأما إن جلب ألماً أو عاد بالضرر على صاحبه فهو شرّ وسوء، لكونه لم يحقق المنفعة والسعادة لصاحبه ولم يطرد عنه الهم تبعاً لذلك، فدفع الهم فيه منفعة وخير، وبالمقابل يكون الهم شرّاً وألماً يجب دفعه وإزالته.⁽⁴⁾ ومن هنا مال بعض الباحثين إلى القول بأن «نظرية ابن حزم الأخلاقية متشعبة بالفلسفة الرواقية التي تأثر بها ابن حزم تأثراً محسوساً»⁽⁵⁾ صحيح أن اللذة عند النفعيين هي الخير الأسى والألم هو الشر الأقصى، لكن هؤلاء تناسوا أن اللذة عند أريستيب (433-366 ق.م) مؤسس مذهب اللذة في الأخلاق النفعية، وعند أبيقور تعتبر الأساس الوحيد

¹ ابن حزم: "الرسائل" (335/1).

² ابن حزم: "رسالة في مداواة النفوس..." ضمن "الرسائل" (335/1).

³ توفيق الطويل: "مذهب المنفعة في فلسفة الأخلاق" دار النهضة المصرية، القاهرة، ط. 1953م، (ص. 22).

⁴ محمد أبو زهرة: "ابن حزم..." (ص. 179).

⁵ محمد إبراهيم الفيومي: "تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس" دار الجيل، بيروت، ط. 1997م، (ص. 269).

للقيم الخلقية، أي أن النظرة المادية هي المسيطرة على اللذة، وهي المفضلة غالبا، وهو ما نراه متبلورا فيما بعد مع بنثام جريي (ت.1832م) وستوارت ميل (ت.1873م) وديوي (ت.1924م)...

وعلى ضوء ذلك، تكون الطبيعة البشرية مصدراً للسلوك الخلقي، لأن اللذة دافع فطري لا أثر فيه للدين، ويترتب عنه أن الإنسان يبحث عن اللذة أو المنفعة حتى ولو كان فيها مخالفة للشرع، فالمهم تحقيقها على قاعدة: الغاية تبرر الوسيلة، إضافة إلى ذلك فإن « اللذة عند أغلب اللذيين واحدة، أي ليس ثمة لذة تفضل في ذاتها على لذة أخرى»⁽¹⁾ وإذا كانت أخلاق المنفعة مادية وظرفية ونسبية تختلف من شخص لآخر، فإن اللذة والمنفعة في الأخلاق الحزمية تستند إلى الدين والعقل، كما أن اللذات عنده متفاوتة، وأفضلها كما سبق بيانه اللذات الروحية، واللذة التي تنال لأجل ذاتها عند ابن حزم، لذة غير انسانية، لأن تلك حياة البهائم⁽²⁾ وإنما تنال اللذات لأجل تحقيق طاعة الله، فالتلذذ الروحي والمتعة النفسية هي الحلقة الأخيرة والقصوى التي يسعى المسلم لأجلها، بل ولأجلها يشمّر المشمرون ويتنافسون المتنافسون، وهذا ما يحمل النفس على الأعمال الحسنة والطاعات وفعل الفضائل، ولأجل بلوغ أعظم لذة وهي السعادة. «... إذا نام المرء عن الدنيا -أي مات- نسي كل سرور وكل حزن، فلورثت نفسه في يقظته -أي حياته- على ذلك أيضا، لسعد السعادة التامة...»⁽³⁾ فاللذات الحقيقية عند أبي محمد هي تلك اللذات اللآنهائية، السرمدية المطلقة، وهذه لا تكون إلا في الآخرة. « فإذا صحَّ هذا كله، فالواجب على العاقل ألا يقطع دهره إلا بطلب معرفة ما ينجيه في معاده ويرفعه إلى السماوات التي هي محل الحياة الأبدية والنجاة من كل مكروه، وموضع السرور السرمدي واللذات الدائمة التي لا انقطاع لها...»⁽⁴⁾ لذا فإن الاختلاف واضح بين تصور الأخلاق الرواقية للذة والمنفعة، وبين تصور الأخلاق الحزمية لها، ويجدر بنا أن نتساءل هنا: هل يبلغ الناس حقا هذه

¹ حامد الدباس: "فلسفة الحب والأخلاق..." (ص.125).

² يقول ابن حزم: "فالسعيد من أُنِسَتْ نفسه بالفضائل والطاعات... وطالب اللذات متشبه بالبهائم." الرسائل (340/1).

³ ابن حزم: "الرسائل" (342/1).

⁴ نفسه. (139/3).

الذات الأبدية ؟ ومتى يحصل الناس على السعادة المنشودة في ظل ديمومة الهموم واستمرارها؟.

إن طرد الهموم لن يتوقف ما دام الإنسان حيًّا، ذلك أن الهموم مطردة وكأنها متتالية هندسية، وهي ذات ديمومة واستمرارية، لا تنقطع حتى أثناء النوم والغيوبة، ومهما سعى الإنسان وجدَّ واجتهد، فلن يقدر على إزالتها وطردها نهائيا، فهناك من يطرد همَّ الجهل بطلب العلم، وطالب المال لطرد همَّ الفقر، ومزيل همَّ البطالة بطلب العمل، وهكذا دواليك... فكل الناس يحاولون عبثا أن «... يطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال وسائر الهموم، وفي كل ما ذكرنا لمن تدبَّره هموم حادثة لايد منها من عوارض تَعْرِضُ في خلالها وتَعْدُرُ ما يتعذر منها، وذهاب ما وجد منها»⁽¹⁾ لأن الإنسان ما خلقه الله إلا ليبتليه بأنواع شتى من الهموم والغموم والأحزان، وإذن فلا وجود لبصيص أمل أو لوميض حلم، لقطع دابر كل الهموم، سوى أن يسلك المرء الطريق المتجهة إلى الله، ويعمل لأجل محطة الآخرة، فلا طريق غيرها يوصل إلى السعادة الحقَّة، فيحقق بذلك للذات الأبدية الحقيقية. «... فلم أجدها إلا في التوجَّه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة... ووجدت العمل للآخرة سالما من كل عيب، خالصا من كل كدر، موصلا إلى طرد الهم على الحقيقة، ووجدت العامل للآخرة إن امُتُّن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يُسَرُّ، إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال منه، عونٌ له على ما يطلب... فاعلم أنَّ طرد الهم ليس إليه إلا طريق واحد وهو العمل لله تعالى، فما عدا هذا فضلال وسخف»⁽²⁾.

وما يمكننا استنباطه من ذلك، أن أطراح الهم وتناسيه وتجاهله، وعدم الإهتمام به وعدم الالتفات إليه، هو أنسب طريق لإزالته وطرده نهائيا؛ لذلك نجد أبا محمد ينصحنا بالإبتعاد عن الطمع وعن الهم، لأنَّ تكلف النفس وتطلعها، سيؤدي بها حتما إلى قلق وهمَّ دائمين متلازمين مستمرين، لذا يلتبس الناس سبلا وطرقا منفرجة ومتعرجة لطرد الهموم عنهم، إلا أنَّهم فشلوا ويفشلون، بل وسيفشلون حتما لازما، ذلك أنه لا يوجد إلا طريق واحد مختصر، بل هو أفضل وأقصر الطرق كلها، حيث به وحده يتم الخلاص نهائيا وإلى الأبد من كل همَّ، إنه طريق الآخرة، فالعمل للآخرة

¹ نفسه.(337/1).

² نفسه.(337-338).

موصول لطرد الهم على الحقيقة.⁽¹⁾ قال الله تعالى: ﴿وَأما الذين سعدوا ففي الجنة﴾⁽²⁾ وقال تعالى: ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾⁽³⁾.

وعليه فالسعادة ليست شيئا يأتي من الخارج، أولدة مادية خارجية نقتربها لتُحقّق لنا طرد الهم، بل هي نشاط أو سلوك ذاتي صادر عنا، فهي ليست فعلا خارجا عن نطاق الذات؛ بل إنه في ذات الإنسان ذاته، وعليه أن يدرك ذلك ويكتشفه بنفسه، وإلا فإن الهائم تشاركه في ذات الأفعال.⁽⁴⁾ وعلى هذا فلسفت أوافق من ذهب إلى القول بأن ابن حزم تأثر بالفلسفة الرواقية حين قدّم تصوره هذا للسعادة، معللا ذلك بأن حياة ابن حزم المضطربة التي كانت تتوق للاطمئنان والسكينة، إضافة إلى أن فكرة السيطرة على الذات التي قال بها ابن حزم فكرة رواقية أيضا.⁽⁵⁾ فشئت ما بين فلسفة ابن حزم وفلسفة الرواقيين، حيث أن منطلق أبي محمد ديني إلهي، وقد كشف بما ذكرناه من أقواله عن مصدر آرائه الخلقية، في حين أن فلسفة الرواقيين طبيعية مادية لا علاقة لها بالدين أصلا، ولهذا جعل أبو محمد السعادة ذات بعد ديني ماورائي، حيث التقرب إلى الله وهو في كل هذا مباين للرواقيين؛ والدليل قول أبي محمد: «... واعلم أن الوقوف على الحقائق لا يكون إلا بشدة البحث، وشدة البحث لا تكون إلا بكثرة المطالعة لجميع الآراء والأقوال... ولابد لطالب الحقائق من الإطلاع على القرآن ومعانيه... وحديث النبي صلى الله عليه وسلم... ومطالعة الأخبار القديمة والحديثة... واعلم أن نظرك في العلوم على نية إدراك الحقائق في إنكار الباطل ونصر الحق، وتعليمه للناس، وهدى الجاهل، ومعرفة ما تدين به خالك لئلا تعبد على جهل... ونفعك الناس في أديانهم وأبدانهم وتدير أمورهم... وتفهمهم وتقبح القبيح لديهم، أفضل عند الله من كل نافلة تتقرب بها إلى الله عز وجل وأعظم أجرا... واعلم أن ذلك أعظم ثوابا وأفضل عاقبة، وأكثر منفعة من صلتك الناس بالدنانير والدرهم... وقد قال الواحد الأول عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾... واعلم أن من

1. ابن حزم: "الرسائل" (1/338) (3/134).

2. سورة هود، الآية: 108

3. سورة هود، الآية: 105.

4. الذات عند أبي محمد دينية وأمانة بالسوء ولا يخضع لها إلا ساقط الهمة جداً، والعامل من روض نفسه الرياضة التامة وقمع قوة نفسه الغضبية قمعا كاملا مع مداواة شره النفس. "الرسائل" (1/407).

5. حامد أحمد الدباس: "فلسفة الحب والأخلاق عند ابن حزم" (ص. 129).

فضل العلم والإكباب على طلبه، والعمل بموجبه أنك تحصل على "طرد الهم" الذي هو الغرض الجامع لجميع المقاصد من كل قاصد، أولها عن آخرها وبالله التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...⁽¹⁾

ثانيا: الفضيلة مفهومها وأصولها عند ابن حزم

إن لطرد الهم علاقة وطيدة بالسعادة والفضيلة، لذلك يحيلنا أبو محمد إلى ضرورة فهم الفضيلة والرذيلة، والتعرف على أصولها ومعرفة ما يترتب عنهما حتى يبلغ المرء السعادة المنشودة. فالفضيلة سبيل السعادة، ولإدراك السعادة وجب إدراك الفضائل أولا ومعرفتها والإلتزام بها؛ سيان كانت هذه الفضائل طبعية أو كسبية.⁽²⁾ حيث نجده يشير إلى أن الأخلاق منحة وهبات من الله عز وجل خلقها في عباده، ولا يستطيع أحد أن يفعل إلا ما طبعه الله عليه.⁽³⁾ «... فَأَمَّا لَلْأَخْلَاقِ الْمَطْبُوعَةِ فِي الْإِنْسَانِ...»⁽⁴⁾ ومن الناس من هو مفطور على الأخلاق الحميدة ولو كان جاهلا، ولم يعرف شيئا عن رياضة النفس، ومنهم من هو عالم مطالع لكتب الدين والحكمة، لكنه خبيث فاسد الأخلاق.⁽⁵⁾ كما أنه جعل الفضائل مكتسبة حينما آخر بالتعلم ورياضة النفس، والإطلاع على ما قاله الأنبياء والحكماء. وباستخدام المرء عقله، يميز الخير من الشر، وبالتالي يتفاوت الناس فيما يُجبلون عليه من الفضائل والرذائل، كما تتفاوت أيضا استعداداتهم وقواهم التي تمكّنهم من اكتساب وتعلم الفضائل.⁽⁶⁾ «... والعاقِل لا يغتبط بصفة يفوقه فيها، سبع أو بهيمة أو جماد، وإنما يغتبط بتقدمه في الفضيلة... وهي التمييز الذي يشارك فيه الملائكة... لكن مَنْ قَوِيَ تمييزه واتَّسع علمه، وحسُن عمله فليغتنب بذلك، وقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَبَىٰ النَّفْسَ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾»⁽⁷⁾ جامع لكل فضيلة... وما دام للإنسان عقل، ففرض عليه تعلم

¹ ابن حزم: "الرسائل" رسالة التقريب لحد المنطق... (343/4-348).

² يحيى ابن حزم عن نفسه أنه طبع على أفعال ما، واكتسب بنفسه أفعالا أخرى. "الرسائل" (358-354/1).

³ ابن حزم: "الفصل..." (65/2).

⁴ ابن حزم: "الرسائل" (198/1).

⁵ نفسه (346/1).

⁶ ابن حزم: "الرسائل" (354-353-346-339/1) و "الفصل..." (81/2).

⁷ سور النازعات [آية 40].

الخير والعمل به، فمن جمع بين الأمرين جميعا فقد استوفى الفضيلتين معا⁽¹⁾. لهذا يتحدث أبو محمد كثيرا عن الفضيلة، نظرا لما تكتسبه من أهمية بالغة في فلسفة الأخلاق عنده، كما يشير إلى أصولها ومبادئها وطرق الحصول عليها والوصول إليها، وهنا نتساءل عن مقصوده بالفضيلة ؟.

يرى ابن حزم أنّ الفضيلة في الفعل حدّ وسط، فأى سلوك يقوم به الإنسان لا بد أن يحتمل ثلاثة أوجه: فإما أن يكون فيه إفراطاً أو تفريطاً أو أنه اعتدال ووسط بينهما، لهذا عرّف الفضيلة على أنها: «وسط بين الإفراط والتفريط، فكلما الطرفين مذموم والفضيلة بينهما محمودة...»⁽²⁾ فحدّ الشجاعة مثلاً أن يبذل المرء نفسه للموت دفاعاً عن الدين وعن المظلوم وعن سائر سبل الحق، أما التقصير عن ذلك فجبن وخَوَرٌ، وهو تفريط تبعاً لذلك؛ وبالمقابل فإن بذل النفس لعرض من أعراض الدنيا الدنيئة السخيفة يعدّ تهورا وحمقا وإفراطا في غير موضعه. ذلك لأن نفس الإنسان إما أن تميل إلى المعاصي والرذائل بتقصيرها في عمل الفضائل والطاعات، أو غلوها في إتيان الأعمال القبيحة، أما إذا قامت بالطاعات فإنها هنا تكون قد وقّفت إلى الاعتدال والوسطية.

ولهذا فإن السعيد عنده من أنست نفسه بالفضائل ونفرت من الرذائل، والشقي على خلافه. ذلك أنه «... ليس بين الفضائل والرذائل إلا نفار النفس وأنسها...»⁽³⁾ فالإنسان الفاضل من لا يعرض نفسه للتفريط والتقصير في أداء الواجبات، ولا يشتط أو يبالغ لحد الإفراط؛ بل هو على استعداد لأن يُضَيِّق نفسه كما في حال الشجاعة، في المواطن التي تتطلب منه ذلك، فيُقدِّم في حال الإقدام، ويحجم في مواطن الإحجام⁽⁴⁾. فالفضيلة وسط بين الإفراط والتقصير، لأن كلا الطرفين مذموم، والوسطية المميّزة للفضيلة تنتج عن تعادل قوى العقل والشهوة؛ لأن هنالك صراعا بينهما، فإذا سيطر العقل أصبح الإنسان زاهدا، وإذا سيطرت الشهوة جعلت الإنسان مجردا من القيم الإنسانية.

1. ابن حزم: "الرسائل" (1/340-341-413).

2. ابن حزم: "الرسائل" (1/401).

3. نفسه. (1/339-340).

4. نفسه. (1/352) "الفضيلة عند الفلاسفة وسط بين رذيلتين". ناجي التكريتي: "الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية..." (ص.396)

ولا يتوقف الأمر عند أبي محمد في الالتزام بحدّ مُعين من الفضائل، بل في نظره «... ينبغي أن يرغب الإنسان العاقل في الاستكثار من الفضائل، والأعمال التي يستحق من هي فيه الذِّكر الجميل والثناء الحسن... فهي التي تقربه من باريه تعالى»⁽¹⁾ وكلما تقدم المرء في الفضائل، اتَّسع علمه وحسن عمله وزادت سعادته وأصبح قريبا من الملائكة؛ فنهى النفس عن الهوى جامع لكل فضيلة، وهذا النهي أيضا رادع لها عن الطبع الغضبي والشهواني، لأن كلاهما واقع تحت موجب الهوى، ومن اتبع الهوى فقد هوى، فلم يبق إلا استعمال النفس النزيهة التي هي العاقلة، وذلك للنطق أو العقل الموجود فيها، والذي به بانث عن الهائم والحشرات والسباع⁽²⁾ وعلى هذا الأساس يصنف ابن حزم النفس إلى ثلاثة أصناف: شهوانية وغضبية وناطقة -عاقلة-؛ فذو القوة الغضبية لا يرى من ذلك ما يراه ذو القوة النباتية الغالبة على نفسه، وكلاهما لا يرى من ذلك ما يراه ذو القوة الناطقة الغالبة على نفسه. وإشارته إلى النفوس على هذا النحو، يُدَكِّرُنَا بتقسيم فلاسفة اليونان لقوى النفس بكونها ثلاثة: نباتية شهوانية وحيوانية غضبية، وناطقة عاقلة، وعن قيام كل نفس بعملها، وعنها تنتج الفضيلة الرابعة وهي العدالة⁽³⁾ وأما أصول الفضائل عند أبي محمد فهي أربعة، وعن هذه الأربعة تنتج بقية الفضائل الأخرى، كما أن أصول الرذائل أيضا أربعة وعنها تتركب باقي الرذائل. «أصول الفضائل كلها أربعة وعنها تتركب كل فضيلة وهي: العدل والفهم والنجدة والجلود، وأصول الرذائل أربعة، وعنها تتركب كل رذيلة، وهي أضداد التي ذكرنا، وهي: الجور والجهل والجبن والشح»⁽⁴⁾

زَمَامُ أصول جميع الفضائل	عدلٌ وفهمٌ وجــــوْدٌ وبأسٌ
فعن هذه رُكِبَتْ غيرُها	فمن حازها فهو في الناس رأسٌ
كذا الرأس فيه الأمور كلها	بإحساسها يكشف الالتباس ⁽⁵⁾

¹ ابن حزم: "الرسائل" (1/386-389).

² نفسه. (1/340-341).

³ أفلاطون: "فيليدون" ترجمة: نجيب بلدي وآخرين، دار المعارف، مصر، ط. 1961م (ص.37)، ومحمد علي أبو ريان: "تاريخ الفكر الفلسفي- أرسطو والمدارس المتأخرة" دار النهضة العربية، بيروت، ط. 1978م (ص.134).

⁴ ابن حزم: "الرسائل" (1/379).

⁵ نفسه (1/380).

ويرى ابن حزم أن كل قوة من قوى النفس تتعلق بها فضيلة ما، وينتج عن انسجام كل قوة مع فضيلتها فضيلة رابعة هي العدل، أما الفضائل جميعها فترتد إلى أربع، هي: العدل والفهم والنجدة والجود؛ وأما الفضائل العامة بالإضافة إلى الأربع الأساسية فقد عدّها ابن حزم في تسع فضائل هي:

الفهم: وتشتمل فضيلته على المعرفة النظرية والعملية، فالنظرية منها فضيلة عقلية تنير للمرء المشكلات وحسن الفهم عن الله بالامتثال لأمره، أما العملية فهي تتمثل في اجتناب الرذائل.

النجدة: وهي لا تتم إلا بالتضحية، وهي وسط بين رذيلتي الجبن والتهور، وحدّها بذل النفس عن الدين والعرض والجار والمستجير، وفي سائر سبل الحق.

العفة: وتتعلق بغرائز النفس وإشباع الشهوة التي تؤدي إلى الاعتداء على أعراض الغير، وحدّها غض البصر وجميع الجوارح عن الأجسام التي لا تحل له.

العدل: ولها أهمية تفوق غيرها من الفضائل، وتتمثل في انسجام وظائف النفس المختلفة التي عبر عنها " بالطبع على العدل"، ويرى أن كل من خلا منها، فلا مطمع في إصلاح نفسه، وحدّها بأن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه.

الوفاء: وهو من الفضائل المركبة من فضائل عدة أهمها العدل والجود والنجدة، وتبرز أهمية الوفاء في تمسك الإنسان وحرصه على عدم إذاعة أسرار الغير وأماناتهم، خصوصاً حينما تتغير العلاقة مع أصحاب الأسرار والأمانات.

الجود: وهي من الفضائل الأساسية، وقد حدّها ببذل الفضل كله في وجوه البر وأعلى درجات الجود هو الإيثار.

الغيرة: وهي خلق مغرور في الوجدان، للمحاربة عن الأعراض، مركبة من النجدة والعدل، فمن عدل كره أن يتعدى إلى حرمة غيره أو أن يتعدى غيره على حرمة، ومن كانت النجدة طبعاً له، حدثت فيه عزة تمنع الأنفة من الإهتزام.

عزة النفس: حيث اعتبرها ابن حزم مزيجاً من الفضائل الإنسانية كلها، فصاحبها أدرك أن الطمع سبب كل رذيلة فارتفع بنفسه عن التدني إلى ما يرذل نفسه، وهي تحتاج إلى الصبر والمغالبة.

الصدق: نظري وخلق، فالنظري هو الإخبار عن الشيء بما هو عليه، وأما الخلقي فهو مركب من العدل والنجدة، فالصادق عادل في وضع الشيء في نصابه حتى لو تضرر منه، وهو شجاع في تقديم مصلحة غيره على مصلحته.

وفي قصيدة له يعدّ أصول الفضائل متمماً إياها بالتقوى، يقول:

وكمال الكل بالتقوى وقول الحق نور
ذي أصول الفضل عنها حدثت بعد البزور⁽¹⁾

وأبو محمد يعتبر أنّ أفضل من جمع أشتات الفضائل بأسرها، ومحاسن الإقتداء كلها، هو الحبيب المصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا وجب الإقتداء والتأسي به⁽²⁾ لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾⁽³⁾

وقد أجمل ابن حزم أنواع الرذائل بالإضافة للأربع الرئيسية، في ثلاث خصال هي: الكذب الذي يتركب من ثلاث رذائل هي: **الجور والجبن والجهل**، فالكذاب مهين النفس ظالم، تعمد تجاوز الحق، وهذا من أقبح الصفات، لكن ابن حزم أباحه في أربع صور: كذب الرجل على امرأته لإصلاحها، وكذب الحامي للمظلوم من سلطان جائر، والكذب في الحرب للنيل من العدو، والكذب من أجل إصلاح ذات البين؛ أما النميمة وهي ثاني الرذائل، فيعتبرها ابن حزم بمثابة الصورة المتطرفة لرذيلة الكذب، إذ يدرك فاعله ما يؤدي إليه من فتنة وتشويه للحقائق، وهي تنشأ من نتن الأصل ورداءة الطبع وخبث النشأة، لما تلحقه من ضرر قد يؤدي إلى سفك الدماء، وآخرها الحرص الذي يصل بين رذائل عظيمة، جوهرها التعلق بالأشياء وسيطرة الحاجات على قوى النفس. مشيراً إلى أن مصدر الفضائل والرذائل هو النفس، ذلك لأنها قسمان: نفس نزيهة تصدر عنها أصول الفضائل، ونفس طماعة، لأن الطمع ضد النزاهة، بل هو أصل كل هم عند أبي محمد، وعنه تصدر أصول الرذائل.⁽⁴⁾ مستدلاً بقول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَبَىٰ النَّفْسَ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾⁽⁵⁾

والملاحظ هنا أن رؤية ابن حزم للفضائل تختلف عن رؤية أفلاطون، وإن بدا أن للفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية تأثيراً على النسق الحزمي في الأخلاق، لأن ابن حزم استمد أصول الفضائل من مصادرها الثابتة أي القيم العربية القديمة، إضافة إلى ما أقرته

1. ابن حزم: "ديوان شعر" جمع وتحقيق: صبيح رشاد عبد الكريم، (ص. 101).

2. ابن حزم: "الرسائل" (1/345-377).

3. سورة الأحزاب [الآية 21] ولقوله عز وجل: "وَأَنَّكَ لَکَلِّ خُلُقٍ عَظِيمٍ" سورة القلم [الآية 4].

4. نفسه. (371/1).

5. سورة النازعات [الآية 40].

الشريعة الإسلامية، وليس أدل على ذلك من تأكيد ابن حزم على وجوب الرجوع إلى القرآن الكريم والسنة النبوية.⁽¹⁾ لذلك فإني أرى أن ما كتبه ابن حزم في الأخلاق، يعتبر نتائج لدراسات وتجارب شخصية، لهذا انتهى إلى أن الفضائل تؤخذ من الدين الإسلامي، وتكمل بالحكمة والفلسفة والتجربة.⁽²⁾ ولا غرو أن نجدته يرشد الذي يجهلون معرفة الفضائل بأن يعتمدوا على ما ورد في الشرع قائلا: «من جهل معرفة الفضائل، فليعتمد على ما أمر به الله تعالى ورسوله، فإنه يحتوي على جميع الفضائل...»⁽³⁾

وبهذا يبدو لنا جليا أن ابن حزم أقام نظرية أخلاقية بأسقة سامقة، منسجمة ومتساوقة؛ بل ومتميزة أيضا عن نظيراتها اليونانية أو الإسلامية المتأثرة بالفكر الأخلاقي اليوناني، إذ أسس نظرية "طرد الهم" مبدأ هاما في فلسفة الأخلاق لم يكن معروفا عند سابقيه.

¹ إسماعيل مصطفى: "ابن حزم حياته وفلسفته" (ص.152).

² محمد أبو زهرة: "ابن حزم" دار الفكر العربي، القاهرة، ط 1، 1954م (ص.183).

³ ابن حزم: "الرسائل" (401/1) (134/3).

ثالثا: العلاقة الجدلية القائمة بين الهم وطرد الهم.

إن محور أفكار أبي محمد والتي يجب أن يدركها الناظر في أسفاره ويستوعبها، أن الشريعة والفلسفة متفتحتان معاً على الدعوة إلى الفضائل وإلى التمسك بالقيم الخلقية.⁽¹⁾ لهذا كان ابن حزم مدرّكاً أنّ إنسانية الإنسان لن تتحقق إلا بتميز الفرد بالسلوك الفاضل، فهو الموصل إلى الكمال الدنيوي والأخروي، ومن ثمة السعادة الأبدية السرمدية. ومادام الإنسان في صراع دائم مع الهم، يحاول طرده والخلّص منه، فإنه يجب أن ينتبه إلى أن الهم ليس شراً دائماً، أو ليس سلبياً كله كما في هذه الحالة، بل هو أيضاً عامل حيوي وباعث ديناميكي، ومُحرِّك إيجابي ودافع إلى الخير، فلولا ما انبثقت في نفس المهموم العزْزُ والجَدُّ والسعي لأجل طرد الهم، طمعا في الحصول على ضده المحمود والمرغوب فيه. «... وإنما طلب الذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه همّ فؤتها، وإنما طلب العلم من طلبه ليطرد به عن نفسه همّ الجهل... وكل الناس ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال وسائر الهموم.»⁽²⁾

وتومض لنا هذه الجملة الطريفة الحصيفة الطريفة، بأنّ ثمة علاقة جدلية بين الهم والطمع، وصراعا نفسيا أزليا سرمديا أبديا بينهما، فالهمّ يثير قلق صاحبه ويدفعه، وبالمقابل أو النقيض من ذلك، يقوّي الطمع إرادته وعزمته لأجل الحصول على ما يتمناه أو يريده، ليتخلّص من ذاك الهم، وهكذا تتم القضية ونقيضها، فتتكاثر الهموم وتزداد الأطماع وهكذا دواليك. وبهذا يستمر التنّازع لأجل البقاء، والبقاء لأجل التنّازع، أو لنسميه: الصراع بين قوة الهم وقوة الطمع، أو بين طمع الهم وهمّ الطمع. وهذا شبيه بما قرره فرويد (ت. 1939م) من أن غريزة الليبدو الجنسية، هي سبب دفع الناس لتلبية حاجاتهم وأطماعهم. إنه الطمع الجالب لهمّ ما، ثمّ إن هذا الهمّ لا يُزال إلا بطمع آخر في إزالته، وهكذا دواليك... لكن من دون جدوى، فلا الهموم تزول كلية وتضمحل نهائيا، ولا الأطماع تتحقق تلقائيا ليحصل الانسان على مطلوبه. فما المخرج من هذا المأزق؟ وما الحل لهذه الإشكالية؟

يجيب أبو محمد بطريقة غير مباشرة، بأن من أراد طرد الهمّ فعليه أن لا يهتم بالهمّ، ولا يشغل باله به، فلكي تطرد الهم لا تهتمّ بطرده ولا تهتم، لأنك تريد الثواب الأخروي لا الدنيوي. وهنا يأتي دور التحلي بالفضائل لأجل تحقيق السعادة،

¹ ابن حزم: "الرسائل" (134/3).

² نفسه. (337/1).

التي هي في الآخرة وليست بالضرورة في هذه الدنيا. فحتى لو تأذى الإنسان أو نكب وأصابه الهم والغم فلا ينبغي أن يهتم لذلك، فهو في سرور وانشراح نفس دائم؛ لأنه يرى أن ذلك لأجل الله وفي سبيل الله، فكل عمل تقوم به لوجه الله هو سلوك أخلاقي **فاضل في جوهره**، لأنك تؤديه لله وحده، ولهذا فهو برئ من كل عيب، خالص من كل كدر، وعقباه سرور في العاجل والآجل. فلماذا الهم إذن؟ يا صاحب الهم، إن الهم منفرج لا محالة. «... وإن الحقيقة إنما هي العمل للآخرة فقط، لأن كل أمل ظفرت به فعقباه حزن، إما بذهابه عنك، وإما بذهابك عنه، ولا بد من أحد هذين السبيلين إلا العمل لله عز وجل؛ فعقباه على كل حال سرور في عاجل وآجل، فأما في العاجل فقلة الهم بما يهتم به الناس... وأما في الآجل فالجنة»⁽¹⁾

فالإيمان بأن العمل لله وحده، وفي سبيله وحده هو فيحصل التخلص من كل هم وغم، والحياة علمتنا أن بلسم الجراحات هو الإيمان بالقضاء والقدر، وأن كل ما يحدث للمؤمن خير، فإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له؛ وأن يعلم يقينا قاطعا لا مرية فيه، أن ما يصيبه لم يكن ليخطئه ولن يخطئه، ويعلم أن ما أخطأه وما سيخطئه مستقبلا، لم يكن ليصيبه ولن يصيبه مطلقا، وأن يعلم أن الناس جميعا لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء، لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء ما، لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عز وجل عليه، ولو شك مسلم في ذلك فلن يكون مؤمنا حقا، فإن رضي بذلك اطمأن قلبه وسكنت روحه، رضي الله عنه وأسعده في الدنيا والآخرة، فهو في نعيم وأي نعيم. «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»⁽²⁾ فطب نفسا إذا حكم القضاء، ولا تجزع لحادثة الليالي، فما لحواث الدنيا بقاء، وأما إن سخط وتبرم وأكثر من الشكوى والضجر، فلن ينفعه ذلك في شيء؛ بل إنه سيضره في جسمه ونفسه ودينه ودنياه وآخرته، فمن سخط فعليه السخط... لذلك وجب الحرص كل الحرص، على الرضا بما قسم الله له، وليس تعن بالله ولا يعجز، وإن أصابه شيء فلا يقل لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن ليقل: قدر الله وما شاء فعل... فإذا استقر هذا في النفس إنكشف له سر عجيب، إذ لا سبيل موصلة على الحقيقة للتخلص وطرد كل هم، سوى هذه الطريق، وما عدا هذا فضلال وسخف.

¹ نفسه (335/1).

² سورة البقرة: الآية 156.

لذا يلاحظ أنَّ الدين مسيطر على ابن حزم في كل شؤون الحياة، لأنه الطريق الوحيد للهداية، والقواعد الأخلاقية ليست مجرد معالم أو أصول نظرية تدرّس أو تحفظ، بل لابد من اقتران العلم بالعمل، ولا قيمة للفضائل ما لم يتم تجسيدها عمليا، وغرضه من الأخلاق أن تكون ترجمة تطبيقية، وسلوكاً عملياً واقعياً، ومداواة النفوس بتهذيبها ميدانياً على أرض الواقع، بالأخلاق مع الزهد والإبتعاد عن الرذائل.⁽¹⁾

وإنَّ النظرة التحليلية الفاحصة الناقدة لأراء وأقوال أبي محمد في الأخلاق، تبين بوضوح عنايته الشديدة بالجانب العملي منها، ولا عجب أن تكون دراساته الخلقية مبنية على منهج استقرائي تجريبي، حيث تناول من خلال تجاربه الخاصة، ومن معاشته للناس مختلف الأفعال وردودها، والأحوال والسلوكيات التي كان يشاهدها بالتحليل والنقد، ومن ثمة قام باستقراءها ليصل إلى تقرير أحكامه العامة ونتائجه الكلية، ليكون الخُبرُ أبلغ من الخبر؛ مضافاً عليها الإستدلال الديني والإستنتاج العقلي. لهذا نراه دوماً يتخذ من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، القدوة والأسوة التي يجب أن يُحتذى بها، لبلوغها أسمى وأكمل مراتب الفضيلة، ولأن الخلق السامق والخير الأسمى مجسد في شخصه عليه الصلاة والسلام. لذا فإن الأخلاق الحزمية تنبع من الدين، وتهض من مذهبه الظاهري، فما أمر الله به فهو الخير، وهو الخلق النافع، وما نهى الله عنه فهو الشر، وهو الخلق الباطل والضار. لهذا لاحظ بعض الباحثين أنَّ دراسات ابن حزم الأخلاقية كانت نقدية تحليلية عميقة، خاصة في تقريره المبادئ الخلقية التي تستند إلى الأصول الدينية، وإلى العقل والتجربة، وكان ملماً بكثير من النظريات اليونانية، فضلاً عن أنه كان على علم غير قليل بحكمة الفرس والهند، إضافة إلى تجاربه الشخصية، ممّا أهّله إلى تقديم نظرية رائدة؛ وهو بهذا المنهج يشبه إلى حد بعيد جداً، المنهج الذي اتبعه أرسطو في دراسته للأخلاق. فابن حزم كان فيلسوف وعالم أخلاق، إستقرأ أفعال الناس ليصل إلى أنَّ غرضهم المشترك بينهم جميعاً، هو دفع الهم، ثم اتخذ ذلك مقياساً للخير والشر، ذلك أن علماء الأخلاق يشترطون في الضابط الذي يصلح مقياساً لخلقيا للخير والشر أن يكون عاماً لا خاصاً،

¹ نفسه (334/1 - 335 - 338).

لأنه ميزان لوزن قيم الأفعال كلها، فالأحكام الخلقية عامة لكل الناس، وهي تتجاوز الزمان والمكان.⁽¹⁾

نتيجة:

من ذلك كله نرى أن ابن حزم لم يعدم النظر الفلسفي، ولا التحليل العلمي للنفس الإنسانية، فقدّم لنا مذهبا أخلاقيا متكاملًا متساوقًا متناسقًا، ولم يكتفِ بالجانب النظري التجريدي، حيث البحث عن ماهية الفضائل وبيان طبيعة الرذائل، ومعرفة حقيقة الخير من الشر، وإنما سعى إلى تحقيق غاية تربوية عملية تطبيقية، تهدف إلى تربية السلوك الفاضل، وغرس القيم في النفس البشرية لتصلح وتهذب فتُسعد وتُسعد، كما يتجلى لنا من أفكاره الأخلاقية، جمعه بين المنقول والمعقول، محاولًا معالجة مسألة طرد الهم لتحقيق السعادة، بأسلوب ممتع رائع، وسامق باسق، ومنمق مزوق، يجمع قواعد الأخلاق الإسلامية مع ما يوافقها في الفلسفة، لاسيما فلسفة أفلاطون الأخلاقية⁽²⁾ وأما من لم يستطع من الناس الاهتداء إلى الحق والحقيقة، أو لم تكن له القدرة على البحث، أو جهل كيفية الحصول عليها، فينصحه أبو محمد بأن «... يعتمد على ما أمره الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإنه يحتوي على جميع الفضائل...»⁽³⁾

وبعد: فلقد تفرد ابن حزم الظاهري، بتوظيفه للمنهج الظاهري في معالجته لمسألة بلوغ السعادة و"طرد الهم"، معتمدا على النص والعقل والتجربة، بإعادة تأسيس العلاقة بين المنقول والمعقول، والاعتراف لكل منهما بشرعيته ومشروعيتها؛ بل وبمنزج المنقول بالمعقول. معالجا هذه القضية النفسية الخلقية الكبيرة، والتي لا يزال كثير من فلاسفة وعلماء هذا العصر يتخبطون خبط عشواء، في إيجاد حل لها، في ظل انتشار الأمراض السيكوسامتيكية الناجمة غالبا، عن القلق والإضطرابات النفسية والعصبية المختلفة التي أصابت إنسان هذا العصر، من قلق وهم وانفصام وغيرها...

¹ - زكريا إبراهيم: "ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي" الدار المصرية، القاهرة 1966م (ص. 75) وعمر

فروخ: "ابن حزم الكبير" دار لبنان للنشر، بيروت، ط 1980 (ص. 197).

² - ناجي التكريتي: "الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية" (ص. 389-391) وحامد أحمد الدباس: "فلسفة الحب والأخلاق" (ص. 29).

³ - ابن حزم: "الرسائل" (401/1).

وما يمكن استنباطه من كلام أبي محمد، أن الإنسان لا يمكن أن يحصل على حقيقة السعادة، إلا بمعرفة الفضائل والتمسك بها، ومعرفة الرذائل ثم تجنبها، ولن ندرك حقيقة الفضيلة، إلا إذا تم إدراك مسألة طرد الهم؛ لأن هذا المبدأ هو ما يسعى الناس جميعا للتخلص منه، لكنهم لم ولن يتخلصوا منه، لأن وعيهم بالفضيلة ومن ثمة بالسعادة وما يتعلق بمسألة طرد الهم، لا يزال بعيد المنال عن فهمهم وإدراكهم حتى يتمكنوا من التخلص منها، وهو بعد كل ما ذكرنا يجعل السلامة والراحة في العزلة والإنفراد عن الناس أمر لازم ولازب، لأن الناس أصل كل بلاء وعماء، وهمّ وغمّ. وبهذا يكون الفيلسوف الموسعي ابن حزم، قائدا رائدا في بيان ملابسات ظاهرة أو حالة الهم، وتبيين حقيقة الانسلاخ من بوتقة الهم والغم، للتلبس بنعمة السعادة الحقيقية.